٥

نابغة أغواه الغباء ....

أمير عباس النحال

لم يفخر أمير بتميز اسمه عن أسماء إخوته الذكور طويلًا.

فقد قال له السيد وهم صغار:

«أبوك سرق لك هذا الاسم من ابن ناظر المواشى.. كان اسمه «أمير».. يعنى كلاف المواشى سرق اسم ابن ناظر المواشى..»

وبعدها لم يعد لديه ما يفخر به خاصة بعد أن سجلت حوادثه الصغيرة علامات كلها لا تبعث على الفخر، فعندما دهست السيارة زميلهم زكريا مسعود سارع فجمع كتبه وكراساته المبعثرة وأخذها لنفسه.. وبعد أيام من الحادث جاءتهم الأم الحزينة تسبقها دموعها وهى معصوبة الرأس بطرحة سوداء ومعها ولداها الأكبر سنًّا من زكريا، وعقدوا حلقة من الشتائم والسباب له أمام باب المنزل، ومع وقْع الشتائم والضربات الموجهة على ظهره بالمقشة من أمه الغاضبة أسرع فأتى بالكتب وأعطاها لهم.

* * *

ولما سلموه علبة الحلوى ليحافظ عليها وهو جالس على حافة ملعب الكرة لم يكن فى نيته أن يسرق نصف هذه الحلوى لولا أن أعجبه مذاقها اللذيذ الطرى فراح يأكل منها خلسة.. ولما انهدم ركن كبير من العلبة وتجمعت أغلفة حلواها فى جيبه أسرع فملأ هذه الأغلفة بالحصى وأعادها إلى العلبة.

وتلقى أمير النحال فى هذا اليوم علقة جماعية من فريق كرة ينتعل الأحذية ومملوءًا

obeikan.com

بالغيظ .

ولم يشارك طاهر زين الدين في ضربه، لكنه عنفه قائلًا:

ـ «لا أحد يتمتع بمثل غبائك، فما دمت قد أكلت الحلوى فلماذا تضع بدلًا منها قطعًا من الطين..؟»

* * *

وعندما دخلوا السينما انتبهوا إلى فريد هنيدى وقت الاستراحة ينهض متجهًا إلى أمير ـ الجالس بعيدًا عنهم ـ ويهمس له فى أذنه ويعود إليهم وعلى فمه ابتسامة خبيثة.

سأله طاهر زين الدين: «ما الذى كنت تقوله له؟»

فقال له فريد هامسًا: «ستعرف بعد قليل»

وبعد دقائق من إظلام قاعة السينما ومواصلة العرض انتبه المتفرجون إلى صوت صفعة على وجه ما وشتائم تصدر من فتاة.. عرفوا أنها فتاة صفعت جارها الذى أمسك بيدها فى الظلام.

واتضح أن «فريد» أوهمه أنهم فى الصفوف الخلفية يعيشون فسادًا مع فتيات المدينة فى قلب الظلام ثم قال له: «فلا تجلس كالحمار بجوار فتاتك أيها المحظوظ حتى لا تحتقرك»

ويعود طاهر زين الدين إلى تعنيف أمير قائلًا: «مشكلتك أنك تستدعى الغباء لمساعدتك»

* * *

وفى مدرسته الثانوية انتقل من الصف الأول إلى الصف الثانى متوجًا بالمركز الأول، وصار نبوغه تاجًا يتوج شخصيته التى كان من الممكن ألا تلفت إليه الأنظار بملابسه البسيطة التى يحرص على نظافتها.

واستثمارًا لنبوغه، فقد تقرب إليه زميله فى الفصل نجيب أمين النجار وكان أفضل ما فى هذا التقرب هو أن «نجيب» كان يقتسم معه شطائره اللذيذة فى فسحة الغداء.. ثم صار يخصه بعد ذلك بلفافة يأتى له بها فى كرم مفاجئ، ولما دعاه على الغداء فى منزله.. ثم دعاه

بعد الغداء الثرى أن يشرح له بعض دروس الجبر والهندسة والكيمياء عرف أمير أنه لا شيء فى هذه الدنيا بالمجان. وصار ينفق الساعات الطويلة فى منزل صديقه الثرى دون أن يأبه بحلول الظلام واثقًا أن تأخره عن أسرته فى البلد لن يجلب لهم القلق أو يجلب له غضب أحدهم، فقد عرفت أم الخير أن «أمير» ولدها سعيد بصداقته الجديدة مع ابن هذه الأسرة عالية الشأن فى المدينة، فهم أناس كما قال لها أمير عندهم خدم وسفرجي وسائقان لسيارتين.. وكل هؤلاء فى خدمة نجيب وأختيه.

وعندما عاد إلى أمه ذات ليلة وبيده لفافة كبيرة أسرع ففتحها أمامها وهو مملوء بالفرح: بنطلون جديد، قميص.. غيارات داخلية، جوارب، بلوفر بلا أكمام..

ـ «ما كل هذا؟»

ـ «البك الكبير.. والد نجيب.. اشتراها لى وهو يشترى لولده ملابسه..»

وما لم يقله أمير لأمه واحتفظ به لنفسه هو ما سمعه من ردّ أجاب به أمين بك على سؤال بائع شركة عمر أفندى: «وهل هذا المحروس ابن ناظر العزبة أم ابن الباشخولى؟»

فقد همس له: «لا هذا .. ولا ذاك، إنه ولد غلبان يحتاج المساعدة.. زميل نجيب فى الفصل.. لكن «نجيب» يحبه ..»

ومع هذا ومع دخول فصل الشتاء، لم يخجل أمير وهو يقول لصديقه نجيب: «قلبى يحدثنى أن والدك سيتذكرنى وهو يشترى لك ملابس الشتاء..»

ونقل نجيب هذه الكلمات لوالده بمسحة من الأسى على حال صديقه النابغة فابتسم الرجل وهو يرتب موعدًا لتسوق ملابس الشتاء له ولأمير..

وصارت الأناقة البادية على أمير وهو يرتدى هذا الجاكت الصوفى الثمين جزءًا من تألقه الجديد فى مجتمع المدرسة، وصار تميزه فى الشكل مكملًا لتميزه فى العقل، ثم صار انصرافه إلى بيت نجيب إقامة ونومًا وإعاشة ومذاكرة هو الانصراف الذى يبديه اهتمامًا بدروس صديقه دون أن يعلم هذا الصديق أن «أمير» اقتنص فرصته السانحة فى إقامة مجانية عالية المستوى فى منزل تسبح فيه النعمة ليبتعد بما يكفى عن جحرهم المظلم و أجوائه المقبضة.

وعلى مدى عام دراسى كامل حقق فيـه عشرات الزيـارات لمنـزل صـديقه نجيـب. لم يشاهد أمير شقيقتى نجيب داخل منزله أو خارجه ولو بالصدفة، ولم يكن يعلم أن القـدر ادخر له هذه الصدفة، عندما ذهب فرحًا وسعيدًا إلى نجيب فى ضحى يوم النتيجة ليـبشره بنجاحهما وانتقالهما من العام الثانى إلى العام الثالث والأخير فى دراستهما الثانوية، وفتحت له نجلاء الصغيرة الباب، قدم لها نفسه، راحت تتأمله كأنها تسأله: **«أهذا هو أنت؟»**

وكأنها أجابها **«أجل هذا هو أنا»**

ثم كأنها أخبرته **«لطالما سمعت عنك»**

وكأنها أخبرها بلهفة **«وأنا.. لطالما بحثت عنك.. »**

وعاد من هذه الزيارة بحال ليس هو حاله الذى كان عليه..

وعرف أنه الحب.. الحب الذى قرأ عنه وسمع أنه يحدث من النظـرة الأولى، ثـم أيقـن أنه العذاب، العذاب الذى سيشعل لياليه بالسهاد والأرق وهو يفكر فيها.. ثم أيقـن مـرة أخرى أنه الجحيم.. الجحيم الذى سيتقلب فيه طوال ثلاثة شهور هم عمر الإجـازة التـى ستطول بطول الدهر..

ومضى أكثر من شهرين من العام الدراسى عاود فيهما أمير مشاركة نجيب أمين النجار ليالى الاستذكار المبهجة فى بيته العامر.. وظلت بهجته ناقصة لأنه لم ير نجلاء، عداها مـرة وحيدة التقى بها عند مدخل العمارة وكانت تغادرها مع إحـدى صـديقاتها وهـو يتأهـب للدخول، لم تصافحه، ولكنها ألقت إليه سـلامًا مرحًـا وتحيـة عـابرة وهـى تأخـذ بـذراع صديقتها:

ـ **«أهلًا يا أمير.. نجيب فوق.. فى انتظارك...»**

كلمات مجاملة وسريعة وخاطفة جددت عنده أشياء كانت قد غفت.. تسـمر فى وقفتـه وهو يتابع مشيتها المرحة بعودها الممشوق وشعرها المنسدل فوق كتفيها ..

وطالت الأسابيع دون أمل أن يرى حبيبته داخل هـذا المنـزل الحديـدى وهـذه الأسرة مغلقة الجوانب .. وتمنى لو تواته الفرصة أىّ فرصة ليفعـل شـيئًا.. أىّ شـىء يمكنـه مـن

التحدث معها.

ولم تواته الفرصة قدر ما اختلقها أو أجاد انتهازها عندما تأكد من أن «نجيب» سيمضى يوم شم النسيم مع أصدقائه فى العزبة.. فقرر عمل مغامرة محسوبة يدخل بها بيت صديقه فى غير وجوده.

ومن مكمنه البعيد الذى ظل قابعًا فيه لأكثر من ساعتين شاهد الخادمة تغادر العمارة حاملة حقيبة التسوق.. وما إن ابتعدت قليلًا حتى أسرع بصعود الدرج.

وتعجب وهو آخذ فى الصعود أن ساقيه ترتعشان وأن قلبه يرفرف.. فكيف ذلك وهو الذى قام بهذا الصعود مئات المرات؟ ولم يتذكر أنه نفس الاهتزاز الذى ألم به وهو يستولى على كتب زميله قتيل السيارة زكريا مسعود، ثم وهو يستولى على الشيكولاتة اللذيذة من علبتها، ثم وهو يسرق لمسة غرام فى ظلام السينما من فتاة لا يعرفها، وعرف أن حظه مرهون بأحد احتمالين وهو أن تقابله نجلاء قبل أن تسرع إليه نادية إذا كانت عادت من كليتها بالإسكندرية.

ودق قلبه قبل أن يدق الجرس، ثم سمع وقع أقدام رقيقة تتجه إلى الباب وصوتًا رقيقًا ثم وهو يراها أمامه متهللة الوجه بابتسامتها العذبة:

- «من؟.. أمير؟ ألم تذهب مع نجيب إلى العزبة؟.. كلهم هناك».

- «من؟»

- «محمد ناجى، وصالح فودة، ومحمد العدوى.. أنت تعرفهم»

استجمع قواه ليضع أمامها بعض ما عنده وهو زائغ العينين مأخوذ بضربات قلبه المتوالية:

- «لعله نسينى.. نجيب.. أو تناسانى.. وهذا من حسن حظى حتى أحضر إلى هنا لأسلم عليك..»

تأملته الفتاة ببعض الشك: «إذن، فأنت كنت تعرف أنه غير موجود؟.. أليس كذلك؟»

obeikan.com

ـ «لا والله.. كيف لى أن أعرف ذلك؟..».

وبوجه جديد به حزم ودهشة سألته بصوت خفيض: «وماذا تريد من مقابلتى.. هه؟»

تلجلج للحظات، ثم خفض وجهه فى الأرض قائلًا: «أنت لا تعلمين ما حدث لى منذ أن رأيتك يوم..»

قاطعته مسرعة: «إننا نقف على بسطة السلم، وأنا وحدى هنا.. وقد يسمعك الجيران»

ودون تفكير خطا خطوتين إلى الداخل وصار فى مواجهتها.. فتراجعت الفتاة مضطربة:

ـ «ماذا فعلت؟.. قلت لك أنا هنا بمفردى.. كيف سمحت لنفسك بالدخول؟»

انتبه إلى أنه قد فهم بالخطأ ما قالته عن أنهما يقفان على السلم وظنها دعوة للدخول.

ـ «ظننتك لا ترغبين أن أظل واقفًا على بسطة السلم..»

ـ «يا سلام.. كنت أحذرك من كلامك الغريب.. حتى تمسك لسانك ولا تحدثنى عن هذا الذى حدث لك منذ أن رأيتنى.. إياك أن تكون ظننت أن بنات الناس لعبة.. اتفضل اخرج حالًا»

وراح يؤكد لها أن ظنه البرىء قد خانه، ولما أيقنت الفتاة أنه تورط بعفوية وأن هذا النابغة أو كما يطلق عليه نجيب: «الموس» لم يبق أمامه سوى أن يقبل قدميها لتعفو عنه ألقت إليه ابتسامة ساخرة ومريرة وهى آخذة فى إنهاء الموقف. «خلاص.. خلاص.. حصل خير.. اتفضل..»

ـ «أرجوك.. أخشى أن يفهم نجيب ما حدث الآن على غير ما أحب..»

ـ «لا تحمل همًا.. نجيب لن يعرف حتى إنك قد جئت إلى هنا.. مع السلامة..»

* * *

وكبرت نجلاء فى نظره عندما لم يعثر عند نجيب على أىّ أثر لزيارته البلهاء.. ولما استرد أنفاسه بعد أيام طويلة عاد لتأمل ما حدث وانتهى إلى أنه رغم هزيمته فقد سجل موقفًا.. ويكفى أنها قد أحست ببعض ما عنده رغم فشله فى تقديم كلّ ما عنده من حب

وشوق وسهاد، ثم أقنع نفسه بأن ما أتت به الفتاة من ذعر وغضب ثم هدوء وصلح هو الأمر الذى لا تملك غيره هى أو أىّ فتاة أخرى فى مثل موقفها.. فمن قال إنه يجب على الفتاة ـ أى فتاة ـ أن تكشف عن مكنون قلبها عند أول فرصة تتاح لها فى ذلك؟

وفجأة طرأت له فكرة أن يسطر لها خطابًا.. يسلمه لها عند خروجها من المدرسة.

أزاح كتبه جانبًا، وقرب مصباح الغاز إلى منتصف الطبلية، وتهيأ لكتابة خطاب إلى نجلاء وهو يبحث عن نداء رقيق يناديها به إلى أن وجده:

«حبيبتى.. وقرة عينى.. وفلذة كبدى: نجلاء»

* * *

وتاهت نظراته وهو يبحث عنها فى هذا الموكب المدهش المنهمر من البنات فى طريق الخروج من المدرسة.. وراح يراقب تفكك كتلة الموكب كلما تقدم فى المسير آملًا أن يعثر عليها.. وراح يعيد على ذاكرته كلّ الكلمات الرقيقة التى حفظها ليتلوها عليها وهو يسلمها الخطاب..

ـ **«أمير..؟.. لماذا أنت هنا؟.. أتبحث عن أحد؟»**

وظهرت له نجلاء.. وأتاه صوتها.. من حيث لا يحتسب.

ـ **«نجلاء؟.. أ.. أ..»**

ـ **«ما بك؟ ما الذى أوقفك مع هؤلاء الأولاد الذين يعاكسون البنات؟»**

مد يده إلى ورقته المطوية داخل كراسته وسحبها مسرعًا ثم دسها بين كتبها وهو يردد:

ـ **«لا شأن لى بهم جئت أبحث عنك لأعطيك هذا الخطاب»**

وأسرع بالانصراف من أمامها دون أن يرفع وجهه نحوها...

* * *

فى اليوم التالى لم يرتح لتكشيرة عابسة تكسو وجه نجيب النجار، ولم يرتح لتجاهله إياه أثناء الحصص، ثم لم يرتح لهمسته المقتضبة له وهم يخرجون إلى الفسحة الكبيرة: «أريدك فى موضوع».. وازداد قلقه عندما اقترب به من المكان الذى تقف به شلته من الطلبة

الموسرين: محمد ناجى وصالح فودة، ومحمد العدوى، وكان الأخير يتحدث مع فريد هنيدى قرب المقصف، وأمام هذا الجمع فاجأه نجيب بورقة مطوية راح يهزها أمام عينيه.. دارت به الدنيا.. وغامت المرئيات أمامه.. وجف حلقه، واهتزت فرائصه «إنه يلوح لى بخطابى إلى أخته!!»

ـ «لماذا لم تكلفنى بتوصيل هذا الخطاب إلى أختى بدلًا من أن تفضحها أمام زميلاتها فى المدرسة؟..»

ووضح له أن «نجيب» قد جهز نفسه لهذه المواجهة، فها هو محمد ناجى يتأمله بابتسامة ساخرة لاحت على ركن فمه، وهاهو محمد العدوى يطل عليه بوجه جامد.. وفريد هنيدى يقترب منهم وبيده شطيرة أتى بها من المقصف، لم يجد كلامًا يرد به على صديقه. وغرق «موس» المذاكرة الشهير فى بلاهة مفاجئة ونجيب النجار يواصل تعنيفه:

ـ «لماذا لا ترد أيها النذل؟.. أتدرى كيف سأعاقبك الآن؟ اخلع هذا الجاكت.. اخلع كل هذه الملابس التى اشتراها لك أبى..»

لم يجد حائطًا يسند ظهره إليه بعد أن خارت قواه، ورغم تشبثه بملابسه، ورغم تدخل الحضور لمنع نجيب من تنفيذ قراره المجنون إلا أنه تمكن من سترته فخلعها عنه وألقى بها أرضًا ثم عمد إلى قميصه فلم يفلح إلا فى تمزيقه وهو مأخوذ بلوثة استخدم معها جسده القوى.. وفى لمح البصر اختفى أمير النحال من أمامهم.. ثم اختفى تمامًا عن مقعده الدراسى فى الفصل فى كلّ الأيام التى تلت حادثه المزعج.

* * *

ولما غاب عن المدرسة لعدة أيام متتالية ذهبا إليه: فريد هنيدى ورأفت إبراهيم، فاستقبلهما على باب منزله بوجه حزين، ثم خرج بهما إلى الخلاء ثم انفجر أمامهما فى بكاء طويل.. ورغم هذا الموقف الدرامى، فإن ما به من شجن لم يمنع فريد هنيدى من تعنيفه وتذكيره بما وصفوه به من قبل من أنه «حمار.. لا يفهم» ثم نقل إليه كلّ ما سمعه من أصدقاء نجيب، وكيف كان يجب عليه أن يقدر هذه الفتاة حق قدرها عندما احتفظت بسره المشين يوم اقتحم عليها منزلها.. «ولكنها لم تستطع الاحتفاظ بسر الخطاب فسلمته

لأخيها».

وقد حاول رأفت إبراهيم تلطيف الموقف قائلًا لفريد:

- «وما ذنبه يا فريد إذا كان قد أحب فتاة غبية أوصلها غباؤها أن تفهم أن خطابات الغرام يجب أن تعتمد من الإخوة الذكور؟»

ومن خلال كآبته البادية ردد أمير:

- «هى ليست غبية .. الغباء كله عندى..»

فعلق فريد على ذلك قائلًا:

- «كيف يكون الأول على المحافظة غبيًا؟.. لا.. أنت ضحية محاولة التذاكى.. أنت ضحية سوء استخدام ذكائك.. على كل حال.. ماذا ستفعل؟.. أراك أضربت عن المدرسة»

- «سأقدم شهادة مرضية.. وأدخل الامتحان من المنازل.. ولكنى لست بقادر على قراءة سطر واحد.. وكل ما كان فى مخى من معلومات طارت كلها، ولست أدرى لم تحوّل أخى السيد وقرر دخول امتحانه هذا العام؟.. إنه يشاركنى طبلية المذاكرة، وصار وجوده بجانبى يشتت أفكارى.. لقد ضعت، أضاعتنى نجلاء، ودمرنى أخوها».